

تاريخ استقبال المقال: 2016/01/08

تاريخ قبول نشر المقال: 2016/03/23

تاريخ نشر لمقال: 2016/06/01

إسهامات المماليك في الحركة العلمية ودورهم الاجتماعي

في المشرق العربي (648هـ/1249م – 923هـ/1517م)

د. حمزة حمادة

جامعة الشهيد حمة لخضر - الوادي

ملخص:

أمنتُ كما آمن كثيرٌ من الطلبة أمثالي أيامَ جلوسنا على مقاعدِ الدراسة الجامعية، بأنَّ العصرين المملوكي والعثماني يُشكِّلان نقطةَ تحوُّلٍ خطيرةٍ في مسار الحضارة العربية الإسلامية، إذ يُورِّخان لنهاية عصرٍ سابقٍ كان يوصفُ منذ وقت قريب بعصر القوة والإشعاع الفكري، وعصرٍ لاحقٍ وُصف - ظلماً - بعصر الضعف والانحطاط، وتكاد المناهج العربية في المدارس والجامعات تتفق على وسم هذين العصرين -وأخص بالذكر العصر المملوكي مجال الدراسة- بالضعف والتفكك والركود في جميع المجالات العلمية والأدبية وحتى السياسية، ونعته بأحط النعوت - وهذا أمر غير منطقي - لأن واقع الحال يقول غير ذلك. من هنا تأتي هذه الدراسة لتوضح بعض المفاهيم المغلوطة عن هذا العصر، مُحاولَةً إضاءة بعض الجوانب من تاريخ هذه الأمة في هذا العصر، والدور الذي لعبه المماليك (البحرية والبرجية) في خدمة الدين الإسلامي ودفاعهم عن حياض الدولة الإسلامية، ودورهم في خدمة العلم والعلماء.

الكلمات المفتاحية: المملوكي، الحضارة، العصر، المدارس، الخانقاه، التصوف

The contributions of the Mamluks in the scientific movement and social role, In the Arabic Orient

Abstract: As a university student, like all students, I believed that both Mamluk and Ottoman eras represent a dangerous turning point in the course of the Arab Islamic civilization. This is because they date to the end of a previous epoch that was, till recently, described as the age of strength and intellectual enlightenment, and to a following era that was, unfairly, labeled as the era of weakness and decadence. Almost all school and university syllabi agree upon marking the above mentioned eras, especially the Mamluk; the subject of our study, by weakness, disintegration and recession in all scientific, literary, and even political fields. The era is portrayed with the meanest descriptions. But this is illogical because the reality is different.

This study aims at clarifying some erroneous concepts regarding the Mamluk period. It tries also to highlight, first, some parts of the history of the Islamic nation during that age. Second the role that the Mamluks - both Bahri and Burji - played to serve the Islamic religion and to defend the Islamic state in addition to their role in serving science and scientists Mamluk, culture, age, school, khanqah, mysticism

مقدمة:

تشير الدراسات إلى أنَّ المماليك هم سلالة من الرقيق الأبيض، يؤسرون في الحروب، ثم يُباعون في الأسواق، وقد تدرّج الكثير منهم في الرتب العسكرية، حتى وصلوا مراتب عالية، واستطاعوا بعد ذلك أن يستولوا على الحكم في نهاية الحكم الأيوبي في مصر، أما عن أصلهم فهناك روايتان شهيرتان أحدهما ترى: « أن المماليك ظهوروا في مصر أثناء حكم الخليفة الفاطمي "العزیز"، أما الرواية الأخرى فتنسب أصل المماليك إلى جلب الأسرى من القفقاس وآسيا الصغرى إلى مصر من قبل السلطان الصالح أيوب ¹، من هنا يكون أصل المماليك: « من الأتراك والروم والأوروبيين والشراكسة، جلبهم الحكام بعد ذلك ليستعينوا بهم. حيث كان كل حاكم يتخذ منهم قوة تساعده، في دعم الأمن والاستقرار في إمارته أو مملكته، وممن عمل على جلبهم الأيوبيون، كما كان المماليك يبايعون الملوك والأمراء، ثم يدربون على الطاعة والإخلاص والولاء»². ويحضى المماليك باهتمام كبير لدى سيدهم، لذا نجده يحرص على أن يتعلّم المملوك منذ طفولته: « اللغة العربية قراءة وكتابة، ثم بعد ذلك يُدفع إلى من يعلمه القرآن الكريم، ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية.. ويهتم جداً بتدريبه على الصلاة، وكذلك على الأذكار النبوية، ويُراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأ يمس الآداب الإسلامية نُبه إلى ذلك، ثم عوقب»³

بهذه التربية المتميزة تفوّق أطفال المماليك، فكانوا ينشئون وهم يعظمون أمر الدين الإسلامي تعظيماً كبيراً، وتكونت لديهم خلفية واسعة جداً عن الفقه الإسلامي، وظلّت مكانة العلم والعلماء عالية جداً في نفوسهم طيلة حياتهم، وهذا ما يفسر النهضة العلمية الراقية التي حدثت في زمانهم...

الحياة السياسية

يُقسّم المؤرخون الفترة التاريخية الممتدة من 648هـ/1249م إلى 1337هـ/1918م، إلى قسمين يهتّم بها القسم الأول الذي يُمثّل العصر المملوكي: « ويمتدّ من سنة 648هـ/1249م - 923هـ/1517م، وقد شغلته دولتان مُتشابهتان في الخصائص والملامح: الدولة المملوكية الأولى (دولة المماليك البحرية) من عام 648هـ/1249م - 784هـ/1382م، وحكم فيها 25 سلطاناً، والدولة المملوكية الثانية (دولة المماليك البرجية) من عام 784هـ/1382م - 923هـ/1517م وحكم فيها 24 سلطاناً ¹».

2 نهاية الحكم الأيوبي :

قبل ذلك تدفعنا طبيعة الموضوع إلى التّطرق إلى الحياة السياسية في المشرق مع موت آخر ملك أيوبي، وهو (الصالح نجم الدّين)، والذي جاءت وفاته في ظروفٍ عصيبةٍ كانت قاصمة الظهر، يتقدّمها استمرار التكاليف الصليبي على القدس، وعدم وجود مَنْ يقوم مقامه بكل الصدق و الحزم الذي عُرف بهما: « ولم يكن هناك بين الجالسين على العروش الأيوبية الصغيرة مَنْ يستطيع أن يملأ الفراغ السياسي النّاجم عن غياب الصّالح نجم الدّين»². فقامت زوجته شجر الدّر : « بتدبير شؤون الدولة، بعد أن أخفت خبر موته، خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى ابن زوجها، وولي عهده "توران شاه" تحثه على الرّحيل من ولايته في حصن (كيفا) بأطراف العراق، والقُدوم إلى مصر ليعتلي السّلطنة بعد أبيه»³ ويبدو أنّ السلطان "الصالح نجم الدّين أيوب": « قد ربّ ذلك كلّهُ مع زوجته " شجر

الدّر"، وهو على فراش الموت، بدليل أنه عَقِب وفاة الملك الصالح مُباشرة، استدعت "شجر الدّر" إليها الأمير "فخر الدّين بن شيخ الشيوخ"، و"الطّواشي جمال الدّين مُحسن" وكانا من أقرب النّاس إلى "نجم الدّين أيّوب" (...) وأعلمتهما دون سواهما بالوفاة، وأوصتهما بكتّمان الخبر عن جميع رجال الدّولة و النّاس حتّى يحضُر "تورانشاه"⁴ ليستلم ملك أبيه، بل ذهبت بحنكته إلى أبعد من ذلك، في أمر تدبير شؤون الدّولة بعد موت زوجها، خوفاً من أن ينتشر خبر موت السلطان، ويصل إلى الصليبيين المترصّين، قامت وكلفت: «جماعة من الأطبّاء الذين يُمكن الاعتماد عليهم في حفظ السرّ و القيام بأنفسهم بتغسيل جثمان السلطان، ثم أرسلت الجثمان بعد تحنيطها في تابوت على ظهر سفينة ليلا إلى قلعة الرّوضة، حيث دُفنت في هدوء، في نفس الوقت الذي أعلنت فيه "شجر الدّر" أنّ السلطان مريض لا يزوره أحد سوى أطبّائه»⁵

عُرف عن "شجر الدّر"، أنّها امرأة محنكة صعبة المراس، ويرى بعض المؤرّخين أنّ المماليك النّافذين، هم الذين دفعوا بها: «لتولّي عرش السلطنة الشّاغر، ولما كانت هذه السيّدة جارية تركيّة، أو (أرمينية) اشتراها السلطان الزّاحل ثمّ أعتقها و تزوّجها، إفتد اعتبرها بعض المؤرّخين المعاصرين أوّل سلاطين المماليك في مصر، ويقول "تقي الدّين المقريزي": وهذه المرأة، "شجر الدّر" هي أوّل من ملك مصر من ملوك الترك المماليك»⁶ ولم يستمرّ إخفاء موت الملك طويلا حتّى علّمت به الفرنج، فانتهزوا الفرصة وتحركوا جنوباً فملكوا (فارسكور، وشارمساحن وفارمون)، حتّى وصلوا (أشموه طنّاج) وظلّوا كذلك حتّى وصلوا المنصورة⁷، ولم يتمكّن جيش المسلمين الوقوف في وجوههم، فراحوا يُعملون سيوفهم ورماحهم في الأهالي:

« وبينما الكل على ذلك، جمعت فرقة المماليك البحريّة الصّالحيّة قواها خارج المدينة، ثمّ أطبقت على الفرنج بقيادة الأمير "بيبرس البندقداري"، فانقلب نصر الصليبيين إلى هزيمة، وأوسعهم المماليك قتلا، حتّى أهلكهم عن آخرهم تقريباً، بما في ذلك الكونت "أرتوا" نفسه الذي لقي بذلك جزاء تهوّه واندفاعه»⁸ وقد كان طلب منه "لويس التاسع" عدم التّوغل في شوارع المنصورة، التي قتل فيه. لم تُعلن وفاة الملك "الصالح نجم الدّين" رسمياً إلا بعد ما قدّم ابنه "تورانشاه" إلى مصر في (27 فبراير سنة 1250م) وسلّمته "شجر الدّر" مقاليد الأمور، وما لبث السلطان الجديد حتّى تولّى قيادة الجيوش بنفسه، وأخذ في تدبير خطة لإجبار "لويس التاسع" على التّسليم، وخُلاصتها أن يقطع خط الرّجعة على الفرنسيين⁹ وكان له ذلك، بواسطة خطة مُحكمة وضعتان استطاع أن يُجبر الفرنسيين على التّراجع: «من قبالة المنصورة، طالباً دمياط، فتبعه عسكر المسلمين، وأخذوا جماعة من أكابر مملكته أسرى، وقُتل من الفرنج نيّف عن ثلاثين ألف وأخذوا أموالهم»¹⁰ فكان نصراً مؤزّراً: «وهكذا وصلت الحملة الصليبيّة المعروفة بالسّابعة، إلى نهايتها الفاشلة، بفضل المماليك البحريّة، ولم يبق إلّا المفاوضات من أجل الصّحاح»¹¹ وهكذا مُنيت الحملة الصليبيّة السّابعة كسابقاتها بالفشل الذريع، وخسائر فادحة في الأموال و الأرواح، دون أن تُحقّق أي هدفٍ من أهدافها التي سَطّرت لها من قبل.

3 تولّي "غياث الدّين ترانشاه":

من المؤسف جداً، أن يتحوّل ذلك النّصر، والشّعور بالأمان بين المسلمين بعد زوال الخطر الصليبي، إلى صراعٍ داخلي ويتحوّل بأسهم فيما بينهم، وهذا سبب خطير في زوال الدّول، ومنها دولة الأيوبيين. ذلك أنّ السلطان "غياث الدّين تُرانشاه" ابن الملك "الصّالح نجم الدّين أيّوب" لم يستمر في الحكم أكثر من شهرين ونيف حيث: « كان أوّل مُلكه بالديار المصرية، يوم الثلاثاء تاسع عشر دي القعدة سنة 647هـ (...). ثم قُتل الملك المعظم "تُرانشاه"، قتله المماليك وقطّعوه وأحرقوه بالنّار، وغرقوه في بحر المنصورة، يوم الثلاثاء سلخ مُحرّم سنة 648هـ »¹².

تُرجع مُعظم المصادر سبب قتله، إلى سوء مُعاملته للماليك: « ذلك أنّ "تورنشاه" كره المماليك البحريّة، لأنّ لم تشرحه المراجع شرحاً وافياً، ماعدا أن "تورنشاه" كان فتّى عنيف الأهواء، ورث عن أبيه الكآبة والكبرياء، ممّا نفّر منه أمراء المماليك، وأنّه ارتاب في المماليك البحريّة الصّالحيّة، وتوجّس خيفةً من نفوذهم فأعرض عنهم، وقرب إليه مماليكه وحاشيته الذين جاؤوا معه من الشّرق، وأحلّهم محلّ البحريّة، الذين صاروا موضع اضطهاده ووعيده »¹³.

كان ذلك السبب الرّئيس، أي سوء مُعاملته للماليك البحريّة، كما كانت هناك دوافع أخرى يطول ذكرها، دفعتهم إلى الإجماع على قتله، وتمكّنوا من ذلك، في 27 مُحرّم 648هـ، و « بمقتل "تورنشاه" ابن السلطان "الصّالح نجم الدّين أيّوب" في عام 648هـ/1250م، ينتهي عصر الدّولة الأيوبيّة في مصر والشّام، ويتولّى "شجر الدّر" السّلطنة، يبدأ عصرٌ جديد هو عصر سلاطين المماليك، الذين حكموا من خلال دولة عُرفت باسم الدّولة المملوكيّة، ولقد عُرفت هذه الدولة بهذا الاسم، لأنّها قامت على أكتاف فتّة من الرقيق الأبيض، أو الممليك وأيضاً لأنّ السلاطين الذين تعاقبوا على عرش السّلطنة، كانوا كلّهم من المماليك أو من أبنائهم »¹⁴.

4- تولي شجر الدّر:

لم يمض على قيام الدّولة الأيوبيّة قرنٌ من الزّمن، وما هو الحكم ينتقل إلى مماليكهم، لتصير "شجر الدّر": « أوّل ملكة في مصر و الشّام في التّاريخ الإسلامي، وما عُرفت مثلاً ذلك من قبل في تاريخ العرب، إلّا في عهد "زنوبيا" قديماً، فكانت الخطباء تدعوا باسم الملكة الجديدة ولها »¹⁵، كانت "شجر الدر" - كما أشرنا - امرأة حاذقة وذكّية، وقد أوضحت عن ذلك في تسيير أزمة موت زوجها وانتقال الحكم إلى ابنه، فعندما اعتلت العرش: « قبضت على زمام الحُكم بيدٍ من حديد، وهو ما يُبرّر وصف أحد المُعاصرين لها بأنّها: "مرأة صعبّة الخلق، شديدة الغيرة، ذات شهامة زائدة، وحُرمة وإفرة، سكرانة من خمرة النّبي و العُجب". وقد وجّهت اهتمامها الأوّل للتخلّص من بقايا الحملة الصليبيّة السّابعة »¹⁶. وقد رشّح لها المماليك في منصب "الأتابكيّة" الأمير "عزالدّين أيبك التّركماني"¹⁷.

ولكن "شجر الدّر" لم تلبث هي الأخرى طويلاً في سدة الحكم، على الرّغم من حزمها وعزمها، وحسن معاملتها لرعيّتها، حيث: « أخذت "شجر الدّر" تتقرب من أمراء المماليك، وتمنّحهم الرّتب والإقطاعات، كما حقّظت الضرائب عن الأهالي لتستميل قلوبهم، وسّاست الرّعيّة أحسن سياسة »¹⁸. إلّا أنّ كلّ ذلك لم يشفع لها أمام موجة الغضب و السّخط، من العام و الخاص، ولم يستسغ الشّارع: « حقيقة أنّ امرأة تجلس على عرش البلاّد، وهو الأمر الذي كان يُناقض اتّجاهات النّقافة السّائدة من ناحيّة، والتّراث السّياسي من ناحيّة

ثانية، والنظرية السياسية الإسلامية من ناحية ثالثة (...) وبطبيعة الحال عارض المتعلمون و المفقون تولي "شجر الدر"، وألفت الكتب و الرسائل التي تتحدث عن البلايا و المصائب التي تحل بالمسلمين إذا حكمهم امرأة، وكان كتاب "عزالدين بن عبد السلام". في هذا الموضوع مثلاً صارخاً، على اتجاهات الفكر و الثقافة السائدة.¹⁹ فلم تستطع "شجر الدر" فعل أي شيء أمام هذا الوضع الساخط، خاصة بعدما: «جاء رفض الخليفة العباسي برفض المساندة الشرعية لحكم "شجرة الدر" حاسماً ساخراً (إن كانت الرجاء قد عذمت عندكم فاعلمونا، حتى نسير إليكم رجلاً)»²⁰ وعُصِبَ لذلك غضباً شديداً، فأسرع: «أمراء المماليك، بتزويج "شجر الدر" من أحدهم وهو الأمير "عز الدين أيبك التركماني"، الذي لُقِبَ بالملك "المعز"، وتنازلت له "شجر الدر" عن السلطنة بعد أن حكمت البلاد ثمانين يوماً»²¹.

5- مقتل شجر الدر وتولي عز الدين أيبك التركماني:

استقر "الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الصالح" ملكاً بالديار المصرية، يوم السبت تاسع وعشرين من ربيع الآخرة سنة 648هـ.²² ولم يستمر "المعز" طويلاً في الحكم، بعدما بايعته زوجته على الحكم، لتكتشف أنه: «يهوى غيرها، تأمرت عليه وخنقته وهو في الحمام، بمساعدة بعض مماليكها»²³ وذلك بعد حروب طويلة قام بها ضد محاولات الأيوبيين في الشام، لاسترجاع مصر إلى سلطانهم الضائع، لكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل، ولما ذاع خبر مقتل السلطان "المعز أيبك" أسرع المماليك "المعزية"، رغبة في الانتقام من "شجر الدر"، وبالفعل تم القبض على "شجر الدر"، حيث حملها المماليك إلى ضرتها، زوجة المعز الأولى، وأُمّ ولده "علي" فأمرت جواريتها (...) فضربتها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت، وألقوا بها من صور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أياماً ثم دُفنت²⁴.

صراع عنف، وانتقام، ودماء، هو ماصيغ بداية طريق المماليك إلى الحكم، تحدث كل تلك الحوادث الجسام: «والبلايا ثجابه خترين في آن واحد، خطر الفرنج الذين يريدون الانتقام، واسترجاع ماكان لهم من ممالك لاثينية، وخطر التتار الطامعين الجدد، الذين يريدون أن يطمسوا ما تبقى قائماً من معالم الحضارة الإسلامية في مصر و الشام، بعد أن دمروا بغداد، وقضوا على كل ما فيها من عمران وحضارة»²⁵ كل تلك الأخطار كانت تتهدد قيام الدولة المملوكية في مصر والشام.

ثم تتابع حكم سلاطين المماليك، ومن أبرزهم الملك "المظفر سيف الدين قطز عبد الله المعز"، وقد وقعت في فترة حكمه أحداث جسام من أهمها انتصار المسلمين بقيادته على التتار في موقعة (عين جالوت) الشهيرة.

ثم حكم بعده "الظاهر بيبرس البندقداري" وقد وقعت في مدة حكمه أحداث عظام أيضاً، حيث تمكن من القضاء على الثورات الداخلية التي كانت تهدد السلطنة، كما عمل على إعادة بعث الخلافة العباسية في القاهرة، وتمكن من التخلص من بقايا العناصر الأيوبية، التي ظلت تحاول - عاجزة - استرجاع ملكها الضائع. وحتى يحافظ "بيبرس" على استقرار حكمه، عمد إلى عدة تحالفات مع دول أجنبية (أوروبية وآسيوية)، واهتم بالعمل على تحصين أطراف الدولة المترامية، وتغويرها البعيدة، والعناية بالبريد، كما عمد إلى تقوية الأسطول والجيش، وغيرها من الأعمال الكبيرة التي تضمن الأمن والاستقرار لسلطنته، وبعد وفاة "بيبرس" ولي الأمر من بعده أبنائه²⁶.

6- دور المماليك الجهادي:

على الرغم من كثرة الأحداث في نهاية حكم الأيوبيين، وبداية دولة المماليك، يُمكن القول أن سلاطين المماليك جاؤوا: « ليحققوا ذلك الحلم، الذي بدأه زعماء حركة الجهاد الإسلامي، ضد الصليبيين "عماد زكي"، وابنه "نور الدين محمود"، و"صلاح الدين" من بعدهما، بالعمل على توحيد كلمة المسلمين، ووقفهم صفًا واحدًا لإنقاذ العالم الإسلامي من الخطر الماغولي المدمر، وثم تصفية بقايا الوجود الصليبي من بلاد الشام »²⁷ وقد عمل سلاطين المماليك على ذلك فعلاً، إذا اعتبرنا: « أن دولة سلاطين المماليك، جاءت استمراراً لدولة بني أيوب، باعتبارها إفراناً سياسياً/عسكرياً للواقع التاريخي الذي كان يعيشه العالم العربي الإسلامي آنذاك »²⁸. وقد تمكنوا، برغم كل الدماء التي أريقت من أجل تأسيس دولتهم، التي قامت: « في منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، دولة مترامية الأطراف، شملت مصر وبلاد الشام، وامتد حكمهم على مدى ثلاثة قرون تقريباً من الزمن، وأحرزوا باسم الإسلام انتصارات باهرة، ومازالت أسماء مواقع "عين جالوت، ومرج الصفر، والمنصورة، وفارسكور، وأنطاكية، وطرابلس، وعكا" حية في التاريخ تشهد لهم بالبطولة والشجاعة والفداء »²⁹.

7- الحركة العلمية في العصر المملوكي:

لم يختلف العصر المملوكي من الناحية العلمية، عن عصر الأيوبيين بل كما أشرنا كان هذا العصر امتداداً لعصر الأيوبيين، نسجوا على منوالهم بل زادوا من دعمهم للعلم والعلماء، من إنشاء المدارس والخوانق والمساجد، وغيرها من أماكن العلم والعبادة، وشدوا على أيدي العلماء والمتصوفة والأدباء، رحبوا بهم وقربوهم، وأجروا عليهم الرواتب والمنح والهدايا، فالمماليك: « وإن لم يكونوا علماء، فقد كانوا يحترمون العلماء ويعتمدون عليهم في إدارة حكمهم، ولإيمانهم بالعلم فقد عمدوا إلى تشييد المدارس، مع أنهم كانوا من الرقيق لا يميزون بين الولاء لذويهم وأسيادهم الشراة، إلا أنهم استعاضوا عن رفقهم برقيقهم، وعن خساسة أثمانهم بنفاسة آثارهم وعمرانهم، وعن عجمة لسانهم وضياح هوياتهم، بانفتاحهم واحتضانهم لكل عالم وأديب ومُصنّف، وحسن اختيارهم لكتابهم وقضائهم وخُطبَاء المساجد »³⁰.

ركّز سلاطين المماليك اهتمامهم على شتى المجالات، العلمية والأدبية، فجاء النتاج متنوعاً: « ما بين ازدهار فكري في شؤون الدين والعبادة، واهتمام متزايد في اللغة وقواعدها وشروحها، وبيانها وعروضها، إلى عناية ملحوظة بالشؤون الفنية والعلمية، من فلك وطب وهندسة وحرف مختلفة »³¹.

بنى المماليك المدارس وأكثروا منها في شتى أصقاع مملكتهم المترامية الأطراف: « فازدادت زيادة كبيرة، حتى إن الرحالة "ابن بطوطة" عجب من وفرتها، وذكر: أنه لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها، وقال "القلقشندي": إن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس، ما ملأ الأخطاط وشحنها »³² ومن أشهر المدارس التي أسست: المدرسة "الظاهرية الجوانية" التي أسسها (الظاهر بيبرس)، واستغرق بناؤها سبع سنين، وابتدئ التدريس فيها قبل تمامه، والمدرسة "المنصورية" نسبة للسلطان (المنصور قلاوون)³³، كما أعطى سلاطين المماليك اهتماماً خاصاً: « بإتاحة فرصة التعليم المجاني للراغبين من كل فئات المجتمع، حيث ساروا على سنة الأيوبيين، في رعاية العلماء وطلاب العلم، وتنشيط الحركة الفكرية وفاقوهم في بناء المدارس ودور العلم »³⁴ كما امتاز عصرهم بظهور نوع آخر من المدارس، وهي: « مدارس للطب، وقد سبقت بلاد الشام

غيرها في هذا المضممار، نذكر منها مثلاً المدرسة "الدَّخَوَريَّة" (...)، أنشأها (مُهْدَبُ الدِّين عبد الرَّحِيم بن حامد) المعروف "بالدَّخَوَار" سنة 631هـ، والمدرسة "اللُّبُوديَّة النَّجْمِيَّة"، وقد أنشأها (نَجْمُ الدِّين يحيى بن محمد بن اللُّبُودي) سنة 644هـ، والمدرسة "الدَّنسِيرِيَّة" (...) وقد أنشأها (عِمَادُ الدِّين أبو عبد الله محمد بن عباس الرَّبِعي) الطَّبِيبُ الحَاقِق، وقد سُمِّيت هذه المدرسة باسم المدينة التي وُلِدَ فيها، وهي دَنيسَر "35. وقد ضُمَّت العديد من الطلبة من كل جهات العالم الإسلامي. وإذا رُحنا نَقَارِن إنشاء المدارس بين العصرين، الأيوبي والمملوكي، فإنَّنا سنجد الفرقَ الواضحاً، فقد أُحْصِيَ: «في مدينة القَاهِرَة وحدها، خمساً وأربعين مدرسة، مُقَابِلَ خمسَ وعشرين في العصر الأيوبي، وهو رَقْمٌ لَا يُسْتَهَانُ به في تَقْوِيمِ التَّحَقُّقِ لِأَيِّ عَصَرٍ، وَلِأَيِّ مَدِينَةٍ» 36. ومن أشهر المدارس في الشَّام: «مدرسة "الجامع الأموي" بدمشق، التي استقطبت كبار المُدرِّسين والخطباء والمشايخ (...) في مُقَدِّمَتِهِم (الخطيب القزويني، ت739هـ/1339م) و(تقي الدِّين السَّبْكي، ت756هـ/1356م) و(عِمَادُ الدِّين بن كثير، ت747هـ/1372م)» 37.

بتشييد تلك المدارس، مع مرافقها، وبناء المساجد، تكون: «قد تهيأت الأسباب لدولة المماليك في مِصرَ والشَّام لكي تُضَحِّي قِبَلَةَ العرب والمُسلمين التَّحَقُّقِيَّة، ومَلَأَهم الأَمِنْ، بعد استيلاء الفِرَنْجِيَّة على الأَنْدَلُس، والمَغُول على بَغدَاد، وتدمير المَكْتَبَات وإتلاف مُعْظَم مَحْتَوِيَّاتِهَا، من كُتُبٍ ومُوسُوعَاتٍ، كما تهيأت أسبابُ ازْدِهَارِ حَرَكَةِ التَّأْلِيفِ والإِبْدَاعِ في جَمِيعِ المَجَالَاتِ العِلْمِيَّةِ والأَدَبِيَّةِ» 38.

كان الوازعُ الدِّيني عند النَّاس في عصر المماليك جد مرتفع، كما كان في عهد الأيوبيين أو أكثر. للأسباب نفسها تقريباً، وهي كثرة الحروب وما يترتب عنها، ما دفع النَّاس إلى الاهتمام بأمور دينهم، وتدارس القرآن وعلومه، لذا نجد أنَّ المماليك أكثر من اهتم بِخِدْمَةِ القرآن فلم يعد البحث فيه: «تقليداً... للمفسرين السابقين، وإنما كان يُغَايِرُهُ قَلِيلاً، أو كثيراً تبعاً للمذاهب الدِّينية أولاً، والمُفسِّرين أنفسهم ثانياً» 39.

اهتمَّ المماليك اهتماماً بالغاً بكلِّ علوم الدِّين: «فأصبح الحديث، روايةً ومُصْطَلَحاً وشُرْحاً، والفقه بمذاهبه الأربعة السُّنِّيَّة، وأصولُ الفقه والتفسير، وعلم الكلام ونحو ذلك، موادَّ تعليمية أساسية لا يَدُّ لكل مُتَعَلِّمٍ من تلقاها، حتى لو تنافرت معها ميولُه، وجنحت نحو أدبٍ وفن، وإنَّك لن تجد أديباً كاتباً أو شاعراً، ولن تجدَ طبيباً أو مُهندساً أو حاسباً مثلاً، إلَّا وقد حَظِيَ من الدِّرَاسَةِ الدِّينية بنصيب، وتمذهب بأحد المذاهب الأربعة» 40.

كثُرَت في العصر المملوكي التَّأْلِيفُ والتَّصَانِيفُ، في شَتَّى صُنُوفِ المَعْرِفَةِ، كثرةً لم يعرفها عصرٌ قبله، وبخاصة في مجال علوم الدِّين، لكثرة المذاهب والنحل، وكثرة الفرق الصوفية والمدارس الفكرية والفلسفية وغيرها، ثم: «يلي ذلك كُتُبُ اللُّغَةِ بمعاجمها، والأدب بفنونه وأغراضه، ثم كُتُبُ التَّرْجُمِ والسِّيرِ والتَّارِيخِ والجُغَرَاْفِيَّةِ» 41 مؤلفات، ومُصَنَّفَاتٍ وشُرُوحٍ لا حصرَ لها، وتلكم إجابية من أعظم إجابيات هذا العصر، حيث استطاع علماؤه وأدباؤه ومُفكرُوهُ: «وبزمنٍ قياسيٍّ، جمع ما خسرناه من التراث والفكر العربي الإسلامي، الذي تعرَّضَ للنَّهْبِ والإِحْرَاقِ والإِتْلَافِ على يدي المغول، وتابعوا فوق ذلك مسيرة التَّأْلِيفِ والإِبْدَاعِ، فكوَّنُوا نهضةً كُبرى تَوَجَّتْ حِلَقَاتُ تَطَوُّرِ الحضارة العربية الإسلامية» 42 ما يُفسِّرُ غزارة تلك

المؤلفات و المصنفات، ومازالت عناوين كثيرة منها واردة بالأذهان، بل مازالت عناوين كثيرة تتداولها البحوث والدراسات والمطالعات، إلى يوم الناس هذا ومن أشهرها: «لسان العرب» لابن منظور، «المزهر في اللغة» للسيوطي، «وفيات الأعيان» لابن خلكان، و«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«الدرر الكامنة» لابن حجر العسقلاني، و«الإصابة في تمييز الصحابة» له أيضًا، و«تهايه الأرب» للنويري، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي، و«الخطط والسلوك» للمقريزي، و«تاريخ الإسلام» للذهبي، و«المنهل الصافي» والنجوم الزاهرة» لابن تغري بردي، و«تاريخ» ابن خلدون، و«تاريخ» ابن كثير، و«مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري، و«خزانة الألب» للبغداد، و«صبح الأعشى» للقلقشندي⁴³ وغيرها كثير، لورحنا نَعِدّها لصاقت بها صفحات هذا البحث

كما كان اهتمامهم باللغة العربية وعلومها، اهتماما منقطع النظير، - على الرغم من عجمتهم - إلا أن سلاطين المماليك ظلوا أوفياء للغة العربية، فظلت هي لغة الدولة الرسمية: «فكانت لغة الحكم والقلم، سواء أكان الحاكم مُتَمَكِّنًا منها أم لا، لأن دواوين الدولة وبخاصة ديوان الإنشاء، كانت لا تقبل من يتولى مهامها، إلا إذا كان من خيرة الكتاب والبُلغاء والعلماء»⁴⁴ فألفت كتبٌ عديدة أيضًا في مجال اللغة وعلومها، وكثرت

شروح

« فحظيت مؤلفات النحويين السابقة باهتمام العلماء. فقد كان النحو من علوم الثقافة العامة، التي يحتاجها العلماء في كل التخصصات، بالإضافة إلى أنه ضروري لدرس القرآن وفهمه، ومن أشهر الكتب التي اهتم بها علماء العصر، شرحًا واختصارًا: «الكتاب» لسيبويه، فقد شرحه مثلاً أبو بكر الجذامي المالقي، وشهاب الدين الأصبحي»⁴⁵ كما حظيت مؤلفات أخرى بشرح الشراح، منها: «شرح كتاب «الإيضاح» للفارسي، وكتاب «اللمع» لابن جني، وكتاب «التلّفين» لأبي البقاء العكبري، واهتم علماء العصر كذلك بكتاب: «المقرب» لابن عصفور، وكتاب «الجمل» للزجاجي، والجرجاني، وشرح العلماء كذلك بعض المقدمات في النحو، مثل «مقدمة» الجزولي، و«مقدمة» المطرزي»⁴⁶. وتلك الشروح في حقيقة الأمر، هي مؤلفات جديدة، كونها إضافات قد تزيد - أحيانًا كثيرة - في معلوماتها على الكتاب الأصلي. وقد عاش في هذا العصر: «أربعة من عمالقة اللغة العربية، عبر العصور الإسلامية وسار على نهجهم بقيّة علماء العصر، والعصور التالية، وهؤلاء هم: «ابن مالك» ت 672هـ/1273م، و«عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام» ت 761هـ/1356م، «عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل» ت 769هـ/1367م، والمُلَقَّب برئيس العلماء، و«محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان أثير الدين الغرناطي» ت 745هـ/1344م

«⁴⁷

شملت حركة التأليف شتى أنواع العلوم والمعارف، كعلم التفسير، القراءات، علوم الحديث، علم الفقه وأصوله، اللغة العربية واللّسانيات، التاريخ، الطب، الفلسفة والمنطق، العلوم الطبيعية والرياضية، الكيمياء، الفلك... وهناك علومٌ أخرى مختلفة، كالموسيقى، تفسير الأحلام، حلّ المُترجم والألغاز... إلخ، بل شهد هذا العصر اهتمامًا حتى بالفنون العامية التي انتشرت بكثرة، محلية أو واردة من أقطار أخرى، كالزجل، والموشح، كان كان، القوما، المواليا، الدوبيت، البليق... فتأثر على سبيل المثال الأدب العامي المصري بهذه الفنون الوافدة: «من الأندلس والعراق، وهي الفنون التي اصطلاح على تسميتها بالفنون

السبعة، وكان أكثرها تأثيراً في الأدب العامي المصري الموشحات والأزجال، وهما فنّان أندلسيان، فالنصوص المتأثرة بهما في الأدب العامي المصري، أكثر بكثير من النصوص المتأثرة بسائر الفنون الأخرى، معنى هذا أنّ الأدب العامي المملوكي قد تأثر بالفن الأندلسي في المقام الأول⁴⁸ وأشهر كتابين في هذا المجال، هما كتاب (دار الطراز) "لابن سناء الملك" و(توشح التوشيح) "للصفي".

لم يقتصر دعم العلم والمعارف في العصر المملوكي على بناء المدارس فحسب، بل اهتم سلاطين المماليك ببناء (الخانقاه، والزُبط، والزوايا، والترب)، فقد كانت هي الأخرى: «مراكز علمية، ساهمت في دفع الحركة العلمية في مصر والشام.. وتخرج منها الكثير من علماء العصر ومشايقه»⁴⁹. وقد اشتهرت الخوانق في عصر المماليك، كما كان الأمر على عهد الأيوبيين، ففي القاهرة مثلاً: «أكثر سلاطين المماليك وأمراؤهم من إنشائها، ووقفوا للإنفاق عليها الأوقاف الجليلة، ومن هذه الخوانق على سبيل المثال: "خانقاه" (رُكن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري) هذه الخانقاه كانت مركزاً علمياً، يضمّ خانقاهاً ورباطاً وقبةً، وقرّر فيها أربعمئة صوفي، وبالزُباط مائة من الجنّد وأبناء الناس، الذين قعد بهم الوقت»⁵⁰ ووفر لهم فوق ذلك كلّهُ، كل ما يحتاجونه من مستلزمات العيش فجعل في هذه الخانقاها: «مطبخاً يُفَرَّق على كلّ منهم في كلّ يوم اللحم و الطّعام، وثلاثة أرغفة من خُبز البُر، وجعل لهم الحُلوى، وربّ بالقبّة درساً للحديث النبوي، له مدرّس وعنده عدّة من المُحدّثين، وربّ القراء بالشُّباك يتناوبون القراءة فيه ليلاً ونهاراً»⁵¹. ومن أشهر الخانقاها الأخرى، خانقاه "سرياقوس" أنشأها السلطان (قلاوون)، بها خلوة لمائة صوفي وخانقاه "الأمير يوسف شيخو"، وخانقاه الأمير "سيف الدين الجبيغا المظفري"⁵².

كما أُضيف إلى المؤسستين السابقتين (الخانقاه و المدارس)، الزوايا: «مفرد زاوية، من الفعل (زوى، وانزوى)، أي نحاه ومنعه، وهي الموضع المنزوي في البيت، والمقصود اتخذ أحد أركان البيت أو المكان موضعاً للعبادة والاعتكاف، ولتدريس العلم، وهو المسجد غير الجامع، ومأوى المتصوّفين والفقراء، ومُجمّعهم حول شيخهم»⁵³، لكن هذه الزوايا وبمرور الزمن تحوّلت: «إلى أبنية أو مساجد صغيرة للصلاة والعبادة، تُطلق على أماكن إقامة إحدى الفرق الصوفيّة، الذين لا يبرحونها وعادة تقع خارج المُن، وفي الصحارى لذلك رُبّيت فيها أماكن وحُجرات لاستقبال المارين والمنقطعين للعبادة والفقراء والمُحتاجين»⁵⁴.

هذا باختصار شديد عن الدور السياسي والعلمي الذي لعبه المماليك في المشرق العربي من أجل تطور الحركة الفكرية والعلمية، والملاحظ أنّه دور إيجابي فعّال صب في خدمة الدين والعلم والعلماء، على عكس ما تروّج له دراسات عديدة أرخت لهذه الحقبة.

خلاصة : وفي آخر هذا البحث يمكن أن نستخلص مجموعة من الملاحظات نرتبها في النقاط الآتية: لم يختلف العصر المملوكي من الناحية العلمية عن عصر بني أيوب، فهو كما أشرنا امتداداً له فعلموا على تشييط الحركة العلمية، فزادوا من عدد المدارس والمساجد والخوانق، كما زادوا من دعمهم للعلماء والمتصوّفة والأدباء. كان عصر المماليك، عصر تأليف وشروح، فاهتموا باللغة وعلومها، وبالعلوم الفنية والعلمية من فلك وطب وهندسة وحرف مختلفة، فشملت حركة التأليف شتى أنواع العلوم والمعارف. عرفت تلك الحقبة - بسبب الحروب - ارتفاعاً في الوازع الديني، فاهتم الأمراء بعلوم الدين، من حديث وأصول وتفسير وعلم كلام فلا تجد في عصرهم، أديباً أو شاعراً أو طبيباً إلا وله قدر وفير من التحصيل الديني. كما

لَقِيَ الْأَدَبُ عِنْدَهُمْ، رِعَايَةً خَاصَّةً عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَجَمِيَّتِهِمْ، وَانْتَشَرَتْ وَازْدَهَرَتْ حَتَّى الْفُنُونُ الْعَامِيَّةُ، كَالْمُوشَّحِ وَالرَّجُلِ، وَالكَانَ كَانَ، وَالْقَوْمَا، وَالْمَوَالِيَا، وَالْدَوِيَّيْتِ، وَالْبَلِيْق... كَمَا كَانَتْ لِلْمُنْتَصَوْفَةِ رِعَايَةً خَاصَّةً مِنْ طَرَفِ الْأُمَرَاءِ الْمَمَالِيكِ، تَمَامًا كَمَا كَانُوا أَيَّامَ الْمَمَالِيكِ، فَبُنِيَتْ لَهُمُ الْخَوَانِقُ وَالزَّوَايَا وَالرُّبُط.

الهوامش

- (1) التاريخ الشركسي. قادر اسحاق ناتخو. ترجمة: محمد أزوقة. دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع. ط أولى 2009 ص165
- (2) أصل المماليك. أطلس التاريخ الحديث. ص6 الجزء الثالث
- (3) موقع الدكتور، قنديل محمد: العصر المملوكي ومكانته في الحضارة العربية، ص01. www.drqandil.com/reports.php
- (4) قاسم، قاسم عبده- علي، علي السيد: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص126.
- (5) العبادي، أحمد مختار: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص87/86.
- (6) محمد حسين، حمدي عبد المنعم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص134.
- (7) نفسه: ص134.
- (8) قاسم، قاسم عبده- علي، علي السيد: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص128
- (9) يُنظر: العبادي، أحمد مختار: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص86.
- (10) نفسه: ص87/86.
- (11) نفسه: ص88.
- (12) المنصوري، ببيرس: مختار الأخبار، ص08
- (13) العبادي، أحمد مختار: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص91.
- (14) السابق: ص08.
- (15) العبادي، أحمد مختار: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص92.
- (16) محمد حسين، حمدي عبد المنعم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص153.
- (17) باشا، عمر موسى: الأدب في بلاد الشام عصر الزنكيين، والأيوبيين، والمماليك، المكتبة العباسية، دمشق، ط1، ص49.
- (18) قاسم، قاسم عبده- علي، علي السيد: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص125.
- (19) يُنظر، المنصوري، ببيرس: مختار الأخبار، ص09.
- (20) محمد حسين، حمدي عبد المنعم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص157.
- (21) قاسم، قاسم عبده- علي، علي السيد: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص129.
- (22) نفسه: ص129.
- (23) محمد حسين، حمدي عبد المنعم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص157.
- (24) يُنظر، المنصوري، ببيرس: مختار الأخبار، ص09.
- (25) باشا، عمر موسى: الأدب في بلاد الشام، ص50.
- (26) قاسم، قاسم عبده- علي، علي السيد: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص132.
- (27) باشا، عمر موسى: الأدب في بلاد الشام، ص50.
- (28) للتوسع في شأن سلطين المماليك يمكن العودة إلى: تاريخ الأيوبيين والمماليك (أحمد مختار العبادي)، الأدب في بلاد الشام (عمر موسى باشا)، الأيوبيون والمماليك (قاسم عبده قاسم)، تاريخ الأيوبيين والمماليك (حمدي عبد المنعم محمد حسين).

- (30) حُسين الغامدي، عبدالله سعيد محمد: جهاد المماليك ضد المغول الصليبيين، أطروحة دكتوراه، أُجيزت بتاريخ 1407/2/25، جامعة أم القرى، السعودية، ص
- (31) قاسم، قاسم عبده- علي، علي السيد: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص132.
- (32) النهار، عمار محمد: الدراسات النظرية الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية (1250-1382م) مجلة دراسات تاريخية، ع/118، 117، كانون الثاني حزينان، 2012، ص245.
- (33) الأيوبي، ياسين: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، جروس برس، لبنان، ط1، 1995، ص53.
- (34) نفسه: ص54.
- (35) باشا، عمر موسى: الأدب في بلاد الشام، ص116.
- (36) يُنظر، نفسه: ص116.
- (37) أبو علي، نبيل خالد: الأدب العربي بين عصرين، المملوكي والعثماني، دار مقداد للطباعة، غزة، دط، 2007، ج1/1، ص40.
- (38) باشا، عمر موسى: الأدب في بلاد الشام، ص117.
- (39) الأيوبي، ياسين: آفاق الشعر العربي، في العصر المملوكي ص61.
- (40) نفسه: ص64.
- (41) أبو علي، نبيل خالد: الأدب العربي بين عصرين، المملوكي والعثماني، ص42.
- (42) باشا، عمر موسى: الأدب في بلاد الشام، ص121.
- (43) الأيوبي، ياسين: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص54.
- (44) نفسه: ص55.
- (45) النهار، عمار محمد: الدراسات النظرية الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية، ص247.
- (46) الأيوبي، ياسين: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص55.
- (47) السابق: ص55.
- (48) العطاري، جلال يوسف: حركة التأليف العلمي، في مصر والشام، في العصر المملوكي الأول، دار الفكر ناشرون وموزعون عمان، ط1، 2011، ص77.
- (49) نفسه: ص77.
- (50) النهار، عمار محمد: الدراسات النظرية الجديدة، في عصر دولة المماليك البحرية، ص259.
- (51) محمد شمس الدين، مجدي: فنون أندلسية، في الأدب العامي المملوكي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط، القاهرة 2004، ج1، ص23.
- (52) العطاري، جلال يوسف: حركة التأليف العلمي في مصر والشام، في العصر المملوكي الأول، ص22.
- (53) السابق: ص22.
- (54) نفسه: ص22.
- (55) نفسه: ص22.
- (56) سعيد، عبير عنايت: خاتقات مصر حتى نهاية عصر المماليك البحرية، مجلة الأستاذ، ع/203، 2003، ص1456، مسئل من أطروحة دكتوراه بعنوان: الخدمات العامة لدولة المماليك البحرية في مصر.
- (57) نفسه: ص1456.

